سورة المدَّثِّر

ست وخمسون آية، مائتان وخمس وخمسون كلمة، ألف وعشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ} أي يا من لبس الدثار وهو ما يلبس فوق الشعار الذي يلي الجسد.

روى جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد، إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً، فنظرت فوقي، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض، فخفت، ورجعت إلى خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزل عليه السلام فقال: {رَّحِيمٌ يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ}».

وعن الزهري: إن أول ما نزل سورة: {ٱقْرَأْ} (العلق: 1) إلى قوله تعالى: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق: 5)، ثم انقطع الوحي، فحزن رسول الله وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: إنك نبي الله، فرجع إلى خديجة فقال: «دثروني وصبوا علي ماءً بارداً» فنزل جبريل فقال: {رَّحِيمٌ يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ}. {قُمْ فَأَنذِرْ} أي قم من مضجعك، فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أي عظم ربك مما يقوله عبدة الأوثان، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} عن النجاسات ويقال: و «ثيابك فقصر»، لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم، فكانت ثيابهم تتنجس، ولأن تطويل الذيل إنما يفعل للخيلاء والتكبير، فنهى الرسول عن ذلك.

وقال أكثر المفسرين: أي وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة. وقال الحسن: وخلقك فحسن، {وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ}.

قرأ عاصم في رواية حفص بضم الراء في هذه السورة، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر. قال أبو العالية: «الرجز» بضم الراء: الصنم، وبالكسر النجاسة والمعصية.

وقال ابن عباس: أي المأتم فاترك ولا تقربنه أي دم على تركه، {وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} مرفوع منصوب المحل على الحال، أي ولا تعط طالباً للكثير، {وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ}.

روي أن الكفار لما اجتمعوا وبحثوا عن حال محمد صلى الله عليه وسلم قام الوليد ودخل داره، فقال القوم: إن الوليد قد صبا، فدخل عليه أبو جهل وقال: إن قريشاً جمعوا لك مالاً حتى لا تترك دين آبائك، فهو لأجل ذلك المال بقي على كفره، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن الوليد بقي على دينه الباطل لأجل المال، وأما أنت فاصبر على دينك الحق لأجل رضا الحق، لا لشيء غيره، وهذا الأمر كله تعريض بالمشركين كأنه قيل لرسول الله: وربك فكبر، لا الأوثان، وثيابك فطهر ولا تكن كالمشركين فهم نجس البدن والثياب، والرجز فاهجر ولا تقربه كما تقربه الكفار، ولا تمنن تستكثر كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قدراً من المال، وكانوا يستكثرون ذلك القليل، أي كانوا رائين لما يعطونه كثيراً، ولربك فاصبر على هذه الطاعات لا للأعراض العاجلة من المال والجاه، {فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} أي فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فوقت النقر يوم إذ نقر يوم عسير على الكل من المؤمنين والكافرين، كما روي أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد وذلك قوله تعالى.

{عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} وعلى المؤمنين يسير، {ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} منصوب على الذم والتقدير: أعني وحيداً أو حال من العائد المحذوف، أي اتركني ومن خلقته منفرد، أي بلا أب فهو زنيم، أو منفرداً في الشرارة وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، لأنه كان يزعم أنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا، وكان يلقب بالوحيد وكان يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لأبي نظير، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً} أي مبسوطاً.

قال ابن عباس: هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الإبل والبقرة، والغنم، والحجور، والجنان، والعبيد، والجواري.

وقال مقاتل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً، {وَبَنِينَ} ثلاثة عشر كما قاله أبو مالك وسعيد بن جبير، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهو سيف الله وسيف رسوله وهشام وعمارة، {شُهُوداً} أي حضوراً معه بمكة لا يفارقونه ألبتة لأنهم كانوا أغنياء، {وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً} أي وبسطت له الجاه والرياسة في قومه حتى لقب ريحانة قريش ووحيداً، {ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} على ما أوتيه. قيل: إنه كان يقول: إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة الأولى {كَلاَّ}، أي لا تكون له زيادة على ذلك أصلاً فليرتدع من هذا الطمع، فلم يزل الوليد بعد قوله تعالى: {كَلاَّ} في نقصان ماله حتى افتقر ومات فقيراً، {إِنَّهُ} أي الوليد بن المغيرة {كَانَ لآيَٰتِنَا} الدالة على التوحيد والقدرة والعدل، وصحة النبوة، وصحة البعث {عَنِيداً} أي راداً وهو يعرفها بقلبه وينكرها بلسانه، وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر {سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} أي سأكلفه مشقة من العذاب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت، فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت، فإذا رفعها عادت وعنه صلى الله عليه وسلم الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي فيه كذلك أبداً، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} أي إن العنيد فكر ماذا يقول في شأن القرآن وقدر في نفسه ما يقوله، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أي فلعن في دنياه على أي كيفية أوقع تقديره، {ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أي ثم لعن فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة على أي حال كان تقديره، وهذا تعجيب من قوة خاطره، {ثُمَّ نَظَرَ} في ذلك المقدر في القرآن مرة بعد مرة {ثُمَّ عَبَسَ} أي قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول، {وَبَسَرَ} أي قبض جبينه، {ثُمَّ أَدْبَرَ} عن الحق {وَٱسْتَكْبَرَ} أي تعظم عن اتباعه، {فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ} أي ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقل عن أهل بابل،

{إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ} أي ما هذا الذي أتى به محمد إلا قول البشر جبر ويسار.

روي أن الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ {حم} السجدة، فلما وصل إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً عَادٍ وَثَمُودَ} (فصلت: 31) أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبا الوليد ولو صبا لصبأت قريش كلها، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، ثم دخل عليه محزوناً فقال: ما لك يا بن أخي؟ فقال: إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه، وهذه قريش تجمع لك مالاً ليكون ذلك عوضاً مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد. فقال: والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالا ولكني تفكرت في أمره كثيراً فلا أجد شيئاً يليق به إلا أنه ساحر، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمد مجنون فهل رأيتموه يخنق قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ فقالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل، فارتج النادي فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله، متعجبين منه، فلما أقر الوليد بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله في الآخر من أن القرآن سحر وقول البشر إنما ذكره على سبيل العناد لا على سبيل الاعتقاد، فإن السحر يتعلق بالجن، {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} أي سأدخله في الطبقة السادسة من جهنم المسماة بسقر {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} أي أيّ شيء أعلمك ما هي في وصفها، {لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ} أي لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً إلا أكلته، فإذا أعيدوا خلقاً جديداً فلا تذر أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً، وهذه رواية عطاء عن ابن عباس. {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} أي ظاهرة

للبشر من مسيرة خمسمائة عام. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة وزيد بن علي، وعطية «لواحة» بالنصب على الاختصاص، أو على الحال المؤكدة، أي مغيرة للأبشار {عَلَيْهَا} أي النار، {تِسْعَةَ عَشَرَ} ملكاً.

وحكى الواحدي عن المفسرين أن خزنة النار تسعة عشر مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق، وأنيابهم كالصياصي، وأشعارهم تمس أقدامهم، يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر، نزعت منه الرحمة والرأفة، يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفه، ويرميهم حيث أراد من جهنم، وحكمة هذا العدد أن أبواب جهنم سبعة، فستة منها للكفار، وواحد للفساق، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة: ترك الاعتقاد، وترك الإقرار، وترك العمل، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة، والمجموع ثمانية عشر، وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول بل بسبب ترك العمل فقط، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة، فالمجموع تسعة عشر. ويقال: إن الساعات أربعة وعشرون وخمسة منها مشغولة بالصلوات الخمسة، فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة، فحقاً صار عدد الزبانية تسعة عشر،

{وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ} أي القائمين بتعذيب أهل النار، {إِلاَّ مَلَٰئِكَةً} فلا تقاس الملائكة بالسجانين. روي أنه لما نزل قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم. قال ابن أبي كبشة: إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، فنزلت وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، أي ما جعلناهم رجالاً من جنسكم فتغالبونهم، {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} فإنهم يقولون: هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام القيامة، {لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} لأن هذا العدد موجود في التوراة

والإنجيل، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم على وفق ذلك من غير سابقة تعلم، علموا أن ذلك حصل بسبب الوحي من السماء، فالذين آمنوا بمحمد استيقنوا أن ذلك العدد هو الصدق. {وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا} بما رأوا من تصديق أهل الكتاب ذلك، وعلموا أن في كتابنا مثل ما في التوراة، {وَلاَ يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، إذ لم يكن العدد خلاف ما في كتابهم، {وَٱلْمُؤْمِنُونَ} لانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل، {وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، أي شك في صدق القرآن {وَٱلْكَٰفِرُونَ} القاطعون بكذبه: {مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً} أي أيّ شيء أراد الله بهذا العدد القليل حال كونه عدداً عجيباً {كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} أي يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء بهذا المثل إضلالاً وهداية كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} أي إن الخزنة تسعة عشر ولهم جنود من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، خلقوا لتعذيب أهل النار {وَمَا هِىَ} أي سقر {إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ}، أي إلا عظة للخلق ليتذكروا كمال قدرة الله تعالى وأنه لا يحتاج إلى أعوان. {كَلاَّ} أي حقاً أو تنبهوا إلى ما سيلقى إليكم. {وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}.

قرأ نافع وحفص وحمزة بسكون الذال المعجمة، والدال المهملة، وبينهما همزة مفتوحة، أي وقت ذهب. والباقون بفتح الذال المعجمة والدال بينهما ألف. أي إذا جاء. {وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ} أي أضاء.

وقرأ عيسى بن الفضل، وابن السميقيع سفر ثلاثياً، أي طرح الظلمة {إِنَّهَا لإِحْدَى ٱلْكُبَرِ} أي إن سقر لإحدى دركات جهنم {نَذِيراً لِّلْبَشَرِ} تمييز من «إحدى» أي إنها لإحدى الدواهي انذاراً للبشر وفي قراءة أبي نذير بالرفع {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} وقوله تعالى: {لِمَن شَاء} بدل من قوله تعالى: {لِّلْبَشَرِ} أي نذير لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو يتأخر عن خير فيضله الله، {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

رَهِينَةٌ} أي كل نفس مرهونة عند الله بكسبها غير مفكوكة، {إِلاَّ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ} فإنهم فاكون رقابهم بأعمالهم الحسنة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق، {فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي يسأل أصحاب اليمين حال كونهم في جنات الكافرين عن أحوالهم حال كونهم في النار قائلين، {مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ} أي أيّ شيء أدخلكم في هذه الدركة من النار، {قَالُواْ} مجيبين للسائلين: {لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ} الصلوات الواجبة {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ} أي لم نك نعطي المسكين ما يجب علينا إعطاؤه له كنذر وكفارة وزكاة، {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ} أي نشرع في الباطل مع الشارعين فيه، {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ} أي بيوم الجزاء {حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ}، أي الموت، أي إنا بقينا على إنكار القيامة إلى وقت الموت قال تعالى: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ} أي لا تنالهم شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين، {فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}، أي فأي شيء حصل لهم معرضين عن القرآن {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ}.

قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي مذعورة ذعرها القناص. والباقون بكسرها أي نافرة من صوت الناس، أو من ظلمة الليل {فَرَّتْ} أي الحمر {مِن قَسْوَرَةٍ} أي أسد سمي بذلك لأنه يقهر السباع، {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً} أي طرية لم تطو بأن تأتيهم وقت كتابتها، فإن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين، إلا فلان ابن فلان ونؤمر فيه باتباعك. وعن ابن عباس كانوا يقولون: إن كان محمداً صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته من النار، {كَلاَّ} أي لا يؤتون الصحف فلا تقترحوا ذلك، {بَل لاَّ يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ} في زمن من الأزمان، فلذلك يعرضون عن التذكرة {كَلاَّ} أي حقاً {إِنَّهُ} أي القرآن، {تَذْكِرَةٌ} أي عظمة عظيمة من الله توجب اتباعه، {فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ} أي فمن شاء أن يتعظ بالقرآن اتعظ به وجعله نصب عينيه، {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} أي ولا يذكرون في حال من

الأحوال إلا حال أن يشاء الله ذلك. وقرأ نافع بتاء الخطاب. وقرىء بالياء والتاء مشدداً {هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ} أي هو حقيق بأن يتقيه عباده، ويطيعوه وحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا.